رفائيل
الفنان أبداً
RAFFAELLO SANTI
للدكتور أحمد موسى

عرفنا من المقالات السابقة أن عصر الرفعة قد امتاز بعدد عظيم ممن توافرت فيهم الكفايات التي إذا قورنت بغيرها آمنا باطلاق بعض المؤرخين على هذه المرحلة الزمنية « عصر النهضة »

وعرفنا بعض الشيء عن ليوناردو داڤينشي ، وتناولنا بالبحث ميكيلانجلو الذي اعتبرناه عبقرية ملهمة في عالم الفن ، كما فحصنا اتجاهه ونواحي إنتاجه ، ووصلنا إلى أنه كان أعظم فنان ظهر رغم ما بذله حاسدوه من مجهود لتدبير المكائد له حتى يقضوا على صيته وسمعته

واليوم نعالج شخصية أخرى على النقيض ، غمرتها محبة الناس واستأثرت باكبارهم وتدليلهم إلى حد بعيد . ومن تكون هذه الشخصية غير « رفاييللو سانتي » الذي كان على أكبر جانب من جمال الطلعة وسمو النفس ودقة الشعور ورقة الشمائل ؟

ولد رفاييللو يوم ٢٨ مارس (؟) سنة ١٤٨٣ في أوربينو ، وتلقى أول دروسه على والده المصور جيوڤاني سانتي الذي مات عندما بلغ الابن الثانية عشرة من عمره ، ثم على معلم آخر ربما كان تيموتيوڤيتي الذي عاش في أوربينو في ذلك الحين أيضاً ، والذي كان صديقاً حميماً له فيما بعد

ولم يترك رفاييللو مدينة أبيه إلا سنة ١٤٩٩ عندما أراد الالتحاق بالعمل عند المصور المشهور بيروجينو في مدينة پيروجيا

وإذا رجعنا إلى مصوراته كلما نرى أن بينها واحدة أرّخها سنة ١٥٠٤ وأسماها سبوسالزيو (Sposalizio) ، غير أن هذا لا يتخذ دليلا على أنه لم يقم بتصوير لوحات أخرى قبل هذا التاريخ ، إذ المعروف أنه اشتغل بالتصوير في كنيسة بيروجيا وفي سيتا دي كاستيلا

وفي هذه السنة أيضاً (١٥٠٤) سافر إلى فلورنسا وأقام فيها بضع سنوات لم يتركها أثناءها إلا عندما كان يذهب في بعض الآونة إلى بلدته أوربينو أو إلى بيروجيا حيث يقيم معلمه

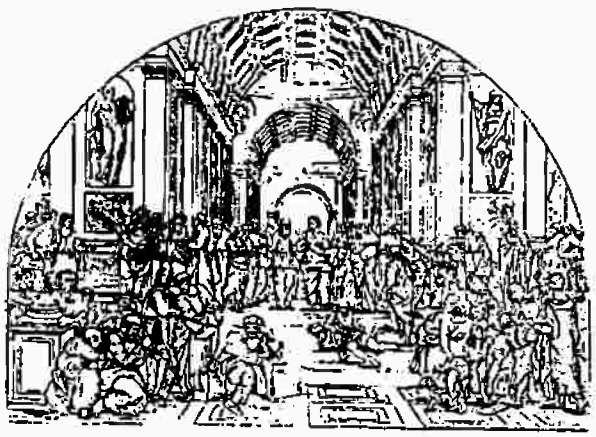

مدرسة أثينا — صورة حائطية بالفاتيكان

وتأثر في فلورنسا بتراث ليوناردو (راجع الرسالة) وبفن فرا بارتولوميو Fra Bartolommeo فدقته في التصوير وعنايته المنهجية ترجع إلى ليوناردو ، على حين ترى السيمتري وجمال التناظر وإبداع التقسيم ورشاقة الحركة إلى بارتولوميو

وصور في فلورنسا لوحة لأجل سان فاتشكو في بيروجيا تمثل دفن المسيح ، وهي القطعة التي لا تزال محفوظة بجاليري بورجيزه في روما

واستدعاه البابا يوليوس الثاني سنة ١٥٠٨ للتوجه إلى روما حيث زخرف وصور بعض غرف بالفاتيكان ، وهنا بدأ اسمه ينتشر ، وما كاد يسمل لدى البابوين يوليوس الثاني وليو العاشر إلا وكانت

لألسنة تلهج بذكره ، وعم صيته إيطاليا وغيرها من البلدان المجاورة

وكلفه فرانس الأول ملك فرنسا بأعمال فنية كما تهافت عليه كثيرون من الأكابر ، والتف حوله تلاميذ عديدون من المعجبين به والراغبين فى فنه

ولم يكن مظهر رفاييلو ليدل على أنه فنان ، بل كان أقرب إلى مظهر الأمراء منه إلى رجال الفن . فتكوينه الجسمانى الرقيق وملابسه الرائعة الاختيار ، وشبابه الغض ، إلى جانب أدبه الجم وحديثه الخلاب ، كل هـذا جعل الناظر إليه أو المتحدث معه يظن أنه فى حضرة أمير أرستوقراطى

وكأن المشيئة أرادت ألا يكون بين ميكيلانجلو وبين رفاييلو أي تشابه أو انسجام ، حتى الاتجاه الفنى عند كليهما كان مختلفاً ، فالموضوع الانشائى وطريقة الاخراج والتعبير تباينت عنـد كل منهما

وكان فى الخمس السنوات الأخيرة من حياته الرئيس الأعلى لبناء كنيسة بطرس ، وتعمق فى دراسة علم الآثار ومعرفة أسرار الفن القديم ، وفكر فى رفع الانقاض والأتربة عن آثار روما القديمة عندما كان محافظاً للآثار فيها

وبلغ الذروة فى سن مبكرة وفجأة أصيب بحمى انتهت بموته ، ولم يكن قد أكمل السابعة والثلاثين من عمره حين وافته المنية فى ٦ إبريل سنة ١٥٢٠ ودفن فى الباثيون بروما

يقول بعض المؤرخين بأن حزنه على خطيبته ماريابيبينا التى ماتت قبله بقليل كان من أهم العوامل التى قربت منيته ؛ فلقد كان على رقة إحساسه ودقة تكوينه الجسمانى عاشقاً مخلصاً محباً متفانياً . فضؤلت مقاومته للمرض

وسجل جمال خطيبته فى كثير من مصوراته وعلى الخصوص فى لوحاته التى مثلت المادونا الكستينية ودوّنا فيلاتا ولا يزال بعض هذه الصور محفوظاً فى أوفيست بفلورنسا .

وأقيم له تمثال تذكارى من البرنز في أوربينو بارتفاع أربعة أمتار تقريباً ، صنعه المثال الايطالى المعروف لوريجي بللى سنة ١٨٩٧ ، كما نحت المثال الألمانى هانل تمثالاً له لايزال من النماذج الفذة لطراز النحت الألمانى .

هذه قد تكون أبسط قصة تقال عن فنان لانظير له ، عاش قليلا ولكنه أنتج كثيراً ، وهو إلى جانب ميكيلانجلو لا يُعدان فقط ثروة الفن الايطالى الحديث بل ثروة العالم أجمع .

ولم يشتغل رفاييلو بالتصوير الجصى (الفرسكو) إلا بعد أن سافر إلى روما حيث قام بتصوير ثلاث غرف وردهة كبيرة في الفاتيكان ، وفيها جمع بين التصوير الرمزى والدينى .

وبعد أن كان البابا يوليوس الثانى عازماً على زخرفة الغرف بواسطة بعض المصورين المعاصرين أمثال بيروجينو وسودوما وغيرهما ، تراه قد تحول اتجاهه إلى روفاييلو بعد أن شاهد تصويره وتفوقه على معلمه ، فكلفه القيام باكمال العمل إلى نهايته .

أما عمله فى الغرفة الأولى (Stanza bella Satgneura) (١٥٠٨ — ١٥١١) فهو متجه فى جوهره إلى الروح الفنية التى كانت لها الغلبة فى ذلك الحين وهي روح من النهضة ، ويتلخص موضوعها فى التعبير عن قوة القوى المسيطرة على العقل الانسانى ، المهيمنة على مصير الانسان ؛ فيرى الشاهد أمام عينيه صوراً رائعة للتعبير عن اللاهوت (الدين) والفن (الشعر) والفكر (الفلسفة) والقانون (الفقه) ، صورها كلها على مساحات دائرية الشكل ، وإلى جانب كل منها التفاسير المرتبطة بموضوع الصورة كالخطيئة والعقوبة والدنيا وحكم سالوم .

أما الصور الكبيرة فى هذا المكان فقد جعلها تنطق بالحقائق التى ترمز إليها في عالمنا الدنيوى .

وفى المكان المسمى ديسپوتا (Disputa) صور المسيحيين الصالحين مجتمعين حول الهيكل وقد فتحت فوق رؤوسهم أبواب السماء (النعيم) . وفى پارناس (Parnass) صور الشعراء الأقدمين والمحدثين ملتفين حول أپولو وآلهات الشعر من حوله .

أما الفلسفة فقد صور مايعبر عنها بمدرسة أتينا الجامعة (الكارتون محفوظ بميلانو) وهى شاملة للمشتغلين بالعلوم العقلية أمثال أفلاطون وأرسطوطاليس وحولهم تلاميذهم ، واتخذ الفنان الركن الأيمن من الصورة لتصوير نفسه مع معلمه بيروجينو .

أما الدين فهو ممثل فى صورته بالبابا والقيصر وهما يصرّفان الأمور والشئون بموجب الكتب السماوية .

« له بقية »

أحمد موسى